الزقاق القديم

قالوا: الزقاق قديمٌ فاهجروا الدارا ... سيهدم الحيّ (تخطيطاً) و(إعمارا)
وفي الزقاق حبيبٌ كنت أعشقه ... وفيه كان كريم القوم لي جارا
وفيه كنت أرى الماضي وبهجته ... وأنشق الأمل المنشود معطارا
إذا عليلٌ شكا سقماً أزفّ له ... غداً بكل صنوف الخير زخّارا
وفرحتي أفرحتْ جاري , وفرحته ... قد سرت الحي غياباً وحضارا
وفيه كنت أرى نبلاً ومرحمة ... وطهرَ نفس وأجواداً وأحرارا
وعفةً وسماواً ليس يعرفه ... رجسٌ وكنت أرى صبراً وإيثارا
لكنهم قرروا هدم الزقاق وما ... كان المحب لحال البعد مختارا
وقال أحبابنا : صبراً فإن لنا ... من المرارة أقساماً وأقدارا
وفي بناء سما كالطود أسكننا ... نصييُنا وعلا في الجو أدوارا
قد طبّقت عُلباً من فوقها عُلبٌ ... فيها الخلائق : أخياراً وأشرارا
تأتيك أصواتهم من كل ناحية ... وربما مازجت صنجاً ومزمارا
يموت في الطابق الأعلى معللهم ... والعرس في الطابق السفلي قد ثارا
وإن تجاوزتَ باب الدار تدخلها ... فلا أراك البلا ضيفاً ولا جارا
إذا ضحكتَ فكل الناس مستمعٌ ... وإن بكيتَ كئيباً صرت أخبارا
فحين قالوا : تهنَّ ، الدارُ تملكها ... ذي جنةُ الخلد أنساماً وأنوارا
أجبتهم بمزيد الحزن : يا عجباً ... من جنةٍ حضنت في حجرها النارا

همستُ في أذُنٍ قد كان صاحبُها ... يخفي علوماً وأنباءً وأسرارا
ما شأنُ إعمارهم ؟ فارتاع مرتعداً ... وقال : لازلتَ في الأوقات مِكثارا
وحينما هدأت أنفاسُ روعته ... وعاد من بعد ذاك الفرِّ كرارا
أجابني : أيها المحزون من ألمٍ ... يا من تحرَّق أشواقاً وتذكارا
أصحابنا في بلاد الغرب قد صنعوا ... هذا فمجّده تقديراً وإكبارا
سبحانَ ما صنعوا ، سبحان ما ابتكروا ... يوزِّعون على الجهال أفكارا
وبعد حين سمعنا أنهم عشقوا ... ذاك الزقاق وذاك الحيّ والدارا
فقال قومي : زقاقُ الحي ليس له ... نِدٌّ وقد جلَّ جدراناً وأسوارا
وفاز من نسي التخطيطُ مسكنه ... من الزقاق وألفى الله ستارا
وعدتُ أنظر في الحيِّ القديم عسى ... أرى من القوم من أهواه ديارا
وما رأيت سوى أصحابنا هبطوا ... صيداً من الغرب سكاناً وعُمّارا
فقلتُ : أهلاً فهذي الدار داركُمُ ... يا سامح الله من قد ضَيَّع الدارا

د. محمود أبو الهدى الحسيني